صباح في مصر

في مثل هذه الأيام من عام 2014، رحلت الفنانة صباح. قبل أن يمضي فيلمون وهبي إلى مصر، كي يقترح عليها ألحاناً لبنانية جبلية، انحسرت الشحرورة بنمط غنائي لازمته الخفة، ما حرم صوتها من التعبير عن نقاط قوة ظلت كامنة فيه

كان حظها أوفر مع جيلها من الملحنين المصريين (فرانس برس)

صوتٌ بقي على سفوح الأغنيات

جمال حسن

انطلقت نجومية الشحرورة صباح (1927 - 2014)، كمغنية، من بوابة السينما المصرية. لكنّ صوتها لاقى سوء فهم من كبار الملحنين في مصر. قدمتها المنتجة آسيا داغر في مصر عام 1945، بأول ظهور سينمائي لها، حين كان عمرها 18 عاماً. لكنّ صوتها ظلّ محلّ التباس، لتسود عنها صورة نمطية مفادها أنّها «مغنية سندوتشات». وتم استبعاد روح صوتها الصادح الجبلي، المُعتد بالحدة والمتوهج بالمواويل والقوة في صعوده التلوينات المقامية. وقلما حاول ملحن سبر أغوار صوتها الجبلي القادر على أداء المواويل الوعرة، والانطلاق بروح متوهجة. وبدلاً من ذلك، تعرضت للتنميط السينمائي التقريري أو العاطفي. وشقت مسارها الغنائي في ملامح لم تطلق المكامن القصوى لصوتها، سواء في عذوبته أو قوته.

مع هذا، فرضت صباح، التي مرت يوم 26 من الشهر الجاري، خمسة أعوام على رحيلها، حضوراً طاغياً شكلته شخصيتها القوية، وصوت جدير بالنفاذ حتى من ألحان متوسطة أو عادية. ولم يكن أداؤها التمثيلي، وإن كان متوسطاً، أقل من مستوى جيلها، عدا استثناءات قليلة. ظلت صباح تراوح بين تعدد في الهوية الغنائية والروح الصاخبة وسط غبار الحب. فكانت صورة إنسانة استسهلت الأشياء في الفن والحياة، وتجاوزت عقباتها بروح هي مزيج من البهجة والشقاوة. وقبل أن تغادر الحياة، أرادت إنهاءها برمزية احتفالية، كما اعتادت أن تكون مثيرة للجدل من دون غطاء من الأسرار؛ فكانت جنازتها حسب ما أوصت به، على وقع الغناء والرقص. في مستهل ظهورها، كانت الفتاة اللبنانية اليافعة على موعد مع كبار الملحنين المصريين من بوابة السينما. لعلها شعرت لوهلة بثقل مسرح

> راوحت بين تعدد الهوية الغنائية والروح الصاخبة وسط غبار الحب

الأضواء الذي يفتن داخليه أول مرة، لكنها ببساطة وجرأة، تآلفت معه واندمجت فيه ببساطة، وربما كان لذلك دور في بعض الاستخفاف الذي طبعها فنياً. بصورة ما، لا تحسن الأسماء الكبيرة، دائماً، التعامل مع يفاعة الصوت؛ إذ اعتادت على التعامل مع مخزون هام طموحه حول الأصوات الكبيرة.

وفي أول فيلم لها، «القلب له واحد» غنت صباح «يا وردة» من ألحان محمد القصبجي، ولم يكن صاحب الروائع لأم كلثوم وأسمهان يطمح إلى أكثر من تقديم كليشيهات لحنية تطبع الأغنية السينمائية المعاصرة لذلك العصر؛ أي إيقاع التانغو. كان لافتاً أن صوت صباح يافع لم ينضج بعد، وقدمت لحناً بسيطاً على مقام النهاوند مع تحول للراست ثم عودة للنهاوند. لم يخرج القصبجي عن هذا النمط في تعامله مع صباح، كانت بالنسبة لتصوره طفلة يافعة. كما أن خلفيتها الموسيقية، لا يمكنها إجادة تلويناته الصعبة؛ فصوتها لا يمتاز بشخصية نور الهدى الأكثر التقاء مع التصورات السائدة للغناء وقتها.

ملحن آخر، هو رياض السنباطي، لم يكن على استعداد لاتخاذ تلك الوجهة المتسمة بخفة ما يُعرف بـ«أغاني السندوتشات». وبعيداً عن مزاجه التطريبي الرفيع، الذي طبعه ملحمياً في صوت أم كلثوم، وظف أدواته ذات النسيج الرومانتيكي. وقدم لصباح لحن «أخاف عليه وأخاف منه» على مقام الكرد. ورغم ما اتسم به أداء صباح من عذوبة وجمال، ظلّ صوتها محتجزاً في منطقة رمادية لا تتآلف مع شخصيته المندفعة والجامحة. ويمكن ملاحظة عدم الراحة في بعض المواضع. على الأقل، فرض هذا المنحى على صوت صباح أن يغرق في ملابسات مع أصوات أخرى.

على نفس النسق، نستمع إلى صوت الشحرورة في أداء أغنية «يا بحر» لزكريا أحمد، كما لو كانت مغنية تقليدية هامشية. ويعود الأمر لطابع الطقطوقة الخفيف والكلاسيكي، لكن في مستهل الأغنية، تتيح لها مساحة ابتدائية إطلاق بعض قدراتها في الأداء الشرقي. لم يختلف الأمر كثيراً مع جيل آخر من الملحنين. في ألحان فريد الأطرش ومحمد فوزي، أدت ألواناً خفيفة. لكن حتى فريد الأطرش، القادم من جذور أكثر قرباً من صباح، كان أكثر اندماجاً بعالمين هما التطريب أو التعبير الرومانتيكي. وفي المشهد السينمائي، ظلت صباح ملكة الدور الثاني الذي يتكئ عليه نجاح الفيلم، بحضور النجم الأول. ربما كان حظها أوفر مع جيلها من الملحنين المصريين، لكنّ سمة الغناء الخفيف ظلت طاغية على ما قدمته. وفي أول تعاون لها مع كمال الطويل، حققت اغنيتها «مال الهوى» نجاحاً لافتاً وقتها. لاحقاً، أكدت صباح، أنّ الطويل ساهم في نضج صوتها وصقله لتجيد أداء المقامات الشرقية الأصيلة. وحين سُئل الطويل، ضمن حفلة شاركت فيه صباح، عن كيف يرى مستوى لحنه المذكور، وما حققه من نجاح؛ أكد أنه لحن بسيط، لافتاً إلى أنّ نجاحه، كما يبدو، على صلة بميل الجمهور للجمل اللحنية البسيطة. أي أنّه لحن لم يأخذه بجدية كبيرة، في إطار تصوره لصباح. لكنّ صباح رسخت حضورها كمغنية ونجمة سينمائية.

مع الملحن محمد الموجي، حققت صباح خطوة إلى الأمام في مصر، وإن أحاطها ببعض رومانسياته. ففي «حبيب القلب»، يمنح اللحن تفاصيل أوسع من النمط الخفيف الذي جسدته، لكن صوتها انحسر في مناطق تحد من توهجه. وبينما كانت الأغنية السينمائية للخمسينيات والستينيات تتخذ منحى جديداً، صاغ لها «ما تصدقوش الحب» بتوظيف واسع للأوركسترا، وتحديداً النفخيات النحاسية؛ فكانت جمله الغنائية جذابة وملائمة لذلك العصر. لكنّه، أيضاً يسوقها لأداء لونها الخفيف في «الحب الحب الحب» بأسلوب إلقائي بسيط. وإذا أخذنا لحناً آخر له «وضبطه بيفكر بيا» وهو من الطابع الخفيف، فإنّه يلائم شقاوة صباح. وينسج الموجي اللحن عند الصعود في «ما هي أختك برضو عندية» بتوظيف طريقة التعبير اليومية التي ترددها نساء الأحياء الشعبية في القاهرة، في مط أصواتهن بدلع، وربما بسخرية. غير أن إساءة الفهم ظلت تسود في ثيمات لحنية وأشكال تعبيرية، مع استثناء شكله بليغ حمدي في عدد من ألحانه لصباح. ومع انشغاله بالمخزون اللحني الشعبي المصري، وتفجيره موسيقى السبعينيات بثيماتها، كان بمقدوره إيجاد جسور تقاربه بالألحان اللبنانية والشامية.

وفي لحنه لأغنية «يانا يانا» يعيد صباح بغناء مصري لأثر واسع من مهدها اللبناني. وأصبحت أغنيتها تلك الأكثر شهرة بين أغانيها على الإطلاق. وعبر توظيفه للمقام الأثير لديه، البيات، ينسج مزيجاً شعبياً لبنانياً مصرياً، بجمل خفيفة وعاطفية ومُعبرة؛ إذ إن الجمل اللحنية البسيطة والقصيرة، ونبرة صوت صباح الذي أتضحت بحته، جعلتها أكثر تصالحاً مع الغناء المصري.

مرحبتين

طبعاً، من المجحف التقليل من نجاح صباح في أداء الأغنية المصرية، لكنّها لم تمنحها تلك المساحات التي تجسد روح صوتها الجبلي. هذه الروح تتجسّد من خلال عملها مع فيلمون وهبي، كما في أغنية «مرحبتين» إذ يمنح للشحرورة بلحنه كلّ الفسح التعبيرية التي يتوهج فيه الصوت المشتق من الجبل، بنبراته العالية وتدفقه المتوهج. وهناك نكتشف بصورة أوسع، ماهية صباح، كصوت وكإنسانة.

إنتاجات

عند الثامنة من مساء اليوم، تقيم **دار الأوبرا المصرية**، على خشبة مسرح «سيد درويش»، في الإسكندرية، عرضاً تؤدّى فيه مجموعة من أعمال الموسيقي الراحل، بليغ حمدي (الصورة)، مثل تلك التي قدمها لوردة، وعبد الحليم.

تتضمّن عروض «مترو المدينة» في بيروت، أنماطاً مختلفة من الغناء والموسيقى. في سلسلة عروض جديدة، تحمل عنوان **موسيقى حافا**، يقدّم عازف الكمان اللبناني، طوني جدعون، عرضاً يوم الثلاثاء المقبل عند الثامنة والنصف مساءً.

لا يتطابق ألبوم Red، لـ **تايلور سويفت**، بنسخته التي صدرت حديثاً، مع النسخة القديمة من العمل (2012). فعلياً هو ألبوم أوسع، يحتوي على جميع تفاصيل النسخة القديمة الأصلية والموسعة، ويضم، أيضاً، أغاني منفردة متفرقة.

في الثاني من ديسمبر/كانون الأول المقبل، تقيم ساقية الصاوي، في القاهرة، عرضاً يحمل عنوان **حفل أم كلثوم**، الذي تقدّمه فرقة الساقية للعرائس، عند السابعة مساءً، ويستمع فيه الجمهور إلى أغنيتي «حب إيه» و«أمل حياتي».

تحت عنوان **انطباعات أمريكية**، تقدم «أوركسترا قطر الفيلهارمونية»، عند السادسة والنصف من مساء الثاني من الشهر المقبل، عرضاً في «مكتبة قطر الوطنية»، تؤدّى فيه أعمالاً لـ آستور بياتسولا وجورج جيرشوين ليونارد برنشتاين.

«ذا بريدج» لـ ستينغ
ابتسامة لا يزيلها موس الحلاقة

سلام أبو ناصر

أخيراً، أطلق نجم الروك الإنكليزي، غوردون سومنر، المعروف بـ ستينغ (1951)، ألبومه السادس عشر، «الجسر» THE BRIDGE.

يضم الإصدار ثلاث عشرة أغنية. تتوزع فيه أنماط محددة من موسيقى (روك – بوب – الموجة الجديدة – ريغي – جاز). تصنيفات نجدها مكررة في كثير من الأغاني التي قدمها ستينغ في مجمل مسيرته الغنائية، خاصة تلك التي تفرّد فيها بعد انفصاله عن فرقته الأساسية، «ذا بوليس»، التي تأسست عام 1977، ثم توقفت عام 1984. ليس سهلًا، في أعمال ستينغ، إيجاد ثيمة موحدة تجمع بينها. لكنه، في هذا الإصدار، يفتقر إلى التجديد. أما من ناحية الكلمة والقوالب الشعرية؛ فإننا نتلمّس صوراً ومجازاتٍ متنوعة ومسهبة. وهذا يشفع للعمل رتابته الطاغية في معظم أغانيه.

يستهل ستينغ، في الأغنية الافتتاحية RUSHING WATER، بألحان موسيقى الروك. انطباع رشيق وحيوي يتجلى في لحن ثابت قوامه الدرامز والغيتار، مع خلفية لإيقاع إلكتروني يمسك بمسار الأغنية، بما يلائم النص الشعري. تَتَوجّه كلمات الأغنية إلى الإنسان، يحثه فيها على الاستمرار والعزيمة في مواجهة ضغوط الحياة؛ فيقول في أحد مقاطعها: What we have here is so easy to solve... Just takes a firm purpose and some resolve.

تتسلل الألحان المتنوعة في أغنية If its love. أنغام مختلفة. ريثم متقلب. كلها مفعمة بالطاقة، يتخللها إقحام لآلة الساكسفون، لتضفي لمسةً دافئة لموسيقى الجاز، فتعكس لنا مناخًا مخضبًا بأجواء موسيقى السبعينيات والثمانينيات، مظللة بمفردات شعرية تمتاز بصور ومجازات تعبر عن ملكة الحب وتأثيره على الإنسان: Where could this smile have come from?Its amuscle that I raeely use).

> نتلمّس مجازات متنوعة ما يشفع للعمَل رتابته في معظم أغانيه

يتكرر الأمر في أغنية HARMONY ROAD من حيث التوزيع الموسيقي. القضية المطروحة بين سطور هذه الأغنية تشكل وعيًا سيسولوجيًا لحال المجتمعات. انعكاس البيئة والمكان على الإنسان لهما النصيب الأكبر في التأثير السلبي على شخصيته وقراراته. لا يولّد العنف إلا العنف، فيبقى السؤال: So how can you make aliving when all you have is apocket knife قد لا يجد ابن هذه البيئات بديلًا للنجاة سوى المغادرة والرحيل، للبحث عن فرصة حياة أفضل. لكن، في اعتقاد ستينغ أنّ الغلبة للمنشأ؛ فيلمّح إلى قوة الانتماء في خوالج الإنسان وأحلامه.

يخصص ستينغ بعض الأغنيات ذات الطابع الهادئ، من دون تكلف في مزج الألحان، أو في طريقة الغناء. نبضات مستقرة تموج بين رتابة وخفةٍ نجدها في أغنيات مثل the loving you ،for her love ،bells of st. Thomas، و waters of tyne.

تتجلى الحالة السردية في النص الشعري لأغنية CAPTAIN BATEMAN. سؤال الحب والحياة أمام تعريف الحرية، والتفاوتات الأخلاقية، يؤديها ستينغ، وفق بناء قصصي يتقاطع مع نغمات الروك وسحر الفلوت. وقد لا تختلف أغنية THE HILLS ON THE BORDER عن سابقتها. ألحان متنوعة وفق توزيع موسيقي، ضم فيه آلة الهارمونيكا التي أضفت جوًا ريفيًا على الأغنية. بناء قصصي تكثر فيه الصور الشعرية، التي تشير فحواها إلى مناجاة الذات، وإنارة العتمة في دواخلنا. وهي رسالة يتبناها الإصدار بين كثير من مقاطعه الشعرية، ونلمسها في صوت ستينغ وأدواته المختارة في تركيبة الألبوم ككل.

اتخذ بعض أغاني العمل طابعاً هادئاً من دون تكلف (أندرو توث / Getty)